عود الضمير: هاء الضمير الغائب وأثرها في توجيه معاني القرآن عند الإمام ابن جرير الطبري في تفسيره.
-سورة ءال عمران، والنساء، والمائدة. أنموذجا- تابع

الدكتور: جمال بوكو
أستاذ مساعد قسم -ب- جامعة الجزائر1. كلية العلوم الإسلامية
d.boukou@univ-alger.dz djamelmaxi@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2020/12/15 -تاريخ القبول: 2021/01/04- تاريخ النشر: 2021/12/26

ملخص:

لقد اعتنى العلماء-رحمهم الله- قديما و حديثا بالدراسات القرآنية، سواء فيما يتعلق بالجانب البلاغي أو النحوي وغيرها، وإن مسألة عود الضمير في القرآن الكريم على وجه العموم و"هاء" الضمير الغائب على وجه الخصوص، من بين أهم المسائل التي لاقت عناية كبيرة لدى العلماء والباحثين، إذ لا يفتؤن في بيان عائد الضمير لِما له من أهمية في تحديد المعاني المختلفة إن كان للضمير يحتمل أكثر من عائدٍ، ولكن تبقى هذه الدراسات في تطور مستمر، كما أنَّ بعضها تحتاج إلى لمّ شملها، فجاءت هذه الدراسة في جمع شتات هذا الموضوع، مركزا على تفسير "جامع البيان في تأويل القرآن" للإمام ابن جرير الطبري في توجيه معاني عائد الضمير، مع ذكر أقوال أهل العلم من المفسرين، كابن عطية، وأبي حيان، وغيرهما، مع مناقشة الأقوال دون توسعٍ، مع ذكر رأي الباحث في كل مسألة معروضة في هذا البحث، وذلك من خلال نماذج مختارة من سورة ءال عمران، والنساء، والمائدة.

مفاتيح البحث: هاء الضمير الغائب و أثرها / توجيه معاني القرآن / ابن جرير الطبري في تفسيره/سورة ءال عمران، النساء، المائدة أنموذجا.

المقدمة:

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على رسوله المصطفى، وعلى آله وصحبه ومن اقتفى.

أما بعد: فهذا بحثٌ ثانٍ[1] من المباحث المتعلقة بـ"هاء الضمير الغائب وأثرها في توجيه معاني القرآن عند الإمام ابن جرير الطبري في تفسيره. -سورة ءال عمران، والنساء، والمائدة. أنموذجا- تابع، ولم أجد (والله أعلم) من تطرق بتأليفٍ مستقل حول هذه الدراسة، لذا كانت دراستنا جمع شتات هذا الموضوع، فاقتصرنا على ذكر نماذج مختارة تطبيقية.

أولاً: نماذج تطبيقية لـ هاء الضمير الغائب لسورتي ءال عمران والنساء:

1/ قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [ءال عمران: 35.36].

موضع الشاهد: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾

رجح الإمام الطبري عود ضمير **"الهاء"** في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾ إلى معنى النَّسمة أو الحَبْلة أو النَّفس «وذلك لأن النَّسمة والحَبلة تصدُق على

[1]- البحث الأول صدر في نفس هذه المجلة [المجمع الجزائري للغة العربية] العدد29، السنة السادسة عشرة، شوال 1440هـ- الموافق جوان 2019م.بعنوان: عود الضمير: هاء الضمير الغائب وأثرها في توجيه معاني القرآن عند الإمام ابن جرير الطبري في تفسيره. -أواخِر سورة البقرة نموذجا [من الآية 170 إلى الآية 280]-

الذَّكر وعلى الأنثى، فلمَّا حَصَل فيها الاشتراكُ جاءت الحالُ مبيّنة لها»[1]، واستبعد الإمام الطبري رحمه الله عود ضمير **"الهاء"** إلى ﴿مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ لأنها كانت ترجو أن يكون ذَكرًا فقال رحمه الله: « ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾ فلما وضعت حَنَّة[2] النذيرةَ، ولذلك أنَّث، ولو كانت **"الهاء"** عائدة على **"ما"** التي في قوله: ﴿إني نذرت لك ما في بطني محررًا﴾، لكان الكلام: فلما وضعته قالتْ رب إني وضعته أنثى»[3].

يرى أبوحيان الأندلسي في تفسيره أن الضمير يعود إلى ﴿ما في بطني محررًا﴾، حملا على المعنى دون اللفظ لأنها أنثى في علم الله فقال رحمه الله: « ﴿فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى﴾ أنَّث الضمير في ﴿وضعتها﴾ حملا على المعنى في: ﴿ما﴾، لأن ما في بطنها كان أنثى في علم الله تعالى»[4].

يظهر لي والله أعلم أن ضمير الهاء في قوله تعالى "وضعتها" يعود على النسمة والنفس كما رجحه الإمام الطبري، ويجوز عوده على ﴿مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ حملاً على المعنى دون اللفظ.

2/ قال الله تعالى: إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ، الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ، فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ [ءال عمران:59. 60. 61].

---

[1] -الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، لأبي العباس أحمد بن يوسف، المعروف بالسمين الحلبي، تحقيق: الدكتور أحمد محمد الخراط، ج133/3، دار القلم، دمشق.

[2] - والدة مريم بنت عمران.

[3] جامع البيان في تأويل القرآن، لأبي جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ج333/6، مكتبة ابن تيمية القاهرة، الطبعة الثانية.

[4] -البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان، تحقيق: صدقي محمد جميل، ج116/3، دار الفكر، بيروت، 1420هـ.

موضع الشاهد: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ[1] فِيهِ﴾

يرى الإمام الطبري رحمه الله أن ضمير **"الهاء"** ﴿فِيهِ﴾ من قوله تعالى: ﴿**فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ**﴾ يعود إلى عيسى عليه السلام، ويجوز عوده إلى ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ فقال رحمه الله: «والهاء في قوله ﴿فِيهِ﴾ عائدة على ذكر عيسى، وجائز أن تكون عائدة على ﴿الحق﴾ الذي قال تعالى ذكره:﴿الحق من ربك﴾»[2]. فيكون معنى الكلام فمن حاجك في عيسى عليه السلام من بعد ما جاءك من العلم أن عيسى عليه السلام عبدُ الله ورسولُه.

أما أبو حيان رحمه الله فقد ذكر القولين ورجح عود الضمير إلى عيسى عليه السلام لأنه هو المحدَّث عنه في أول القصة وما بعده أتى من تمامه، فقال رحمه الله: «والضمير في: ﴿فِيهِ﴾، عائد على عيسى، لأن المنازعة كانت فيه، ولأن تصدير الآية السابقة في قوله: إن مثل عيسى وما بعده جاء من تمام أمره، وقيل: يعود على الحق، وظاهر من العموم في كل من يحاج في أمر عيسى»[3].

ورجح العكبري[4] عود ضمير **"الهاء"** إلى عيسى عليه السلام.

من خلال ما سبق يمكن أن نرجح عود الضمير ﴿فِيهِ﴾ من قوله تعالى: ﴿**فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ**﴾ إلى عيسى عليه السلام، إذ هو المحدَّث عنه في سياق الآيات، والله أعلم.

3/ قال الله تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [ءال مران:76]

---

[1] -حاجك بمعنى: نازعك وجادلك. ينظر: البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان، ج187/3.

[2]- تفسير الطبري، ج473/6، 474.

[3]- البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان، ج187/3.

[4] -التبيان في إعراب القرآن، لأبي البقاء عبد الله العكبري، تحقيق: علي محمد البجاوي، ج267/1.

موضع الشاهد: ﴿ مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ﴾

اختلف العلماء في تعيين عائد الضمير مِن قوله تعالى: ﴿ مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ﴾ يرى الإمام الطبري رحمه الله أن ضمير **"الهاء"** تعود إلى الله تعالى فقال رحمه الله: « و**"الهاء"** في قوله: ﴿ مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ﴾، عائدة على اسم **"الله"** في قوله: ﴿ويقولون على الله الكذب﴾ يقول: بلى من أوفى بعهد الله الذي عاهده في كتابه، فآمن بمحمد ﷺ وصَدّق به وبما جاء به من الله، من أداء الأمانة إلى من ائتمنه عليها، وغير ذلك من أمر الله ونهيه»[1].

ذكر ابن الجوزي قولين من أهل العلم في تعيين عائد الضمير فقال: «**"هاء"** ﴿بِعَهْدِهِ﴾ قولان: **أحدهما**: أنها ترجع إلى الله تعالى. **والثاني**: إلى الموفي»[2].

وجنح أبوحيان إلى القول بأن الضمير يعود إلى ﴿مَن﴾ أي: الموفي فقال رحمه الله «والظاهر في: ﴿بعهده﴾، أن الضمير عائد على: ﴿مَن﴾، وقيل: يعود على الله تعالى»[3].

يظهر لي والله أعلم أن ضمير **"الهاء"** من قوله تعالى: ﴿ مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ﴾ تعود إلى أبعد مذكور وهو لفظ الجلالة "الله" من قوله تعالى: ﴿ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ لأنّ السياق يحتمله.

4/ قال الله تعالى: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء:02].

موضع الشاهد: ﴿إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾

[1] -تفسير الطبري، ج526/6.

[2] - زاد المسير في علم التفسير، لأبي الفرج جمال الدين، المعروف بابن الجوزي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، ج296/1

[3] -البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان، ج225/3.

يرى الإمام الطبري أن ضمير **"الهاء"** في ﴿**إِنَّهُ**﴾ تعود إلى **الأكل المفهوم** من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ﴾ لأنه أقرب مذكور فقال رحمه الله: «﴿إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ إنّ أكلكم أموال أيتامِكم، حوبٌ كبير، و**"الهاء"** في قوله: ﴿**إِنَّهُ**﴾ دالة على اسم الفعل، أعني **"الأكل"**»[1].

ذكر السمين الحلبي ثلاثة أقوال في احتمال عود الضمير ﴿**إِنَّهُ**﴾ ورجَّح ما ذهب إليه الإمام الطبري فقال رحمه الله: «﴿إِنَّهُ كَانَ حُوبًا﴾ **في الهاءِ** ثلاثة أوجه، **أحدها**: أنها تعودُ على الأكلِ المفهوم من «لا تأكلوا». **والثاني**: على التبدُّل المفهومِ من «لا تَتَبدَّلوا» . **والثالث**: عليهما، ذهاباً به مذهبَ اسمِ الإشارة نحو: ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذلك﴾ [البقرة: 68]... والأوّلُ أَوْلى، لأنه أقربُ مذكور»[2].

وذهب إلى هذا العكبري فقال رحمه الله: «﴿**إِنَّهُ**﴾: الهاءُ ضَمِيرُ المصدَرِ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ تَأْكُلُوا؛ أَي: إِنَّ الأَكلَ وَالأَخذَ»[3].

يظهر لي والله أعلم أنّ الضمير ﴿**إِنَّهُ**﴾ من قوله تعالى ﴿إِنَّهُ كَانَ حُوبًا﴾ تعود إلى الأكل المفهوم من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ﴾ لأنه أقرب مذكورٍ.

5/ قال الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:19].

موضع الشاهد: ﴿وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾

يرى الإمام الطبري أن ضمير **"الهاء"** في ﴿**فِيهِ**﴾ تعود إلى الشيء المكروه المفهوم من قوله تعالى: ﴿ أَنْ تَكْرَهُوا﴾ ذكر ذلك بعدما عقب على قول

[1] -تفسير الطبري، ج529/7.

[2] -الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، للسمين الحلبي، ج577/3.

[3] -التبيان في إعراب القرآن، للعكبري، ج327/1.

"مجاهد" الذي يرى عود الضمير إلى **"الكره"** فقال رحمه الله: «و**"الهاء"** في قوله: ﴿وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ على قول "مجاهد" الذي ذكرناه، كناية عن مصدر ﴿تَكْرَهُوا﴾،كأنّ معنى الكلام عنده: فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئًا ويجعل الله في كُرْهه خيرًا كثيرًا، ولو كان تأويل الكلام: فعسى أن تكرهوا شيئًا ويجعل الله في ذلك الشيء الذي تكرهونه خيرًا كثيرًا، كان جائزًا صحيحًا»[1].

أما الإمام الرازي[2] فقد ذكر قولين لأهل العلم في احتمال عود الضمير وهما: احتمال عوده إلى الكره، أو إلى المفارقة أي بمعنى: «إن كرهتموهن ورغبتم في مفارقتهن، فربما جعل الله في تلك المفارقة لهن خيرا كثيرا، ذلك بأن تتخلص تلك المرأة من هذا الزوج وتجد زوجا خيرا منه»[3].
واستبعد أبوحيان هذا القول الأخير فقال رحمه الله: «وهذا القول بعيد من سياق الآية»[4].

من جهة أخرى نجد أنّ أباحيان وافق قول الإمام الطبري وذكر قولا ثالثا في احتمال عود الضمير وهو عوده إلى الصبر فقال رحمه الله: «والضمير في ﴿**فيه**﴾ عائد على شيء **أي**: ويجعل الله في ذلك الشيء المكروه. **وقيل**: عائد على الكره وهو المصدر المفهوم من الفعل. **وقيل**: عائد على الصبر»[5].
بعد ذكر أقوال أهل العلم في عود الضمير ﴿**فيه**﴾من قوله تعالى:﴿**وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا**﴾ يظهر لنا والله أعلم أن الضمير في ﴿**فيه**﴾ يعود إلى

[1] -تفسير الطبري، ج123/8.
[2] تفسير الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1420هـ، ج13/10.
[3] - تفسير الرازي، ج13/10.
[4] - البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان، ج571/3.
[5] -البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان، ج570/3.

الشيء المكروه المفهوم من قوله تعالى: ﴿أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا﴾ لأنه أقرب مذكور وسياق الآية يتضمنه.

ثانيا: نماذج تطبيقية لـ هاء الضمير الغائب لسورة المائدة:

1/ قال الله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾[المائدة: 157].

موضع الشاهد: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾

رجح الإمام الطبري عود ضمير **"الهاء"** في قوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ إلى ﴿الظَّنِّ﴾ لأنه أقرب مذكور فيكون معنى الكلام: ما قتلوا ظنهم يقينا فقال رحمه الله: « ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ يقول: وما قتلوا -هذا الذي اتبعوه في المقتول الذي قتلوه وهم يحسبونه عيسى- يقينًا أنه عيسى ولا أنه غيره، ولكنهم كانوا منه على ظنّ وشبهةٍ، وهذا كقول الرجل للرجل: "ما قتلت هذا الأمر علمًا، وما قتلته يقينًا"، إذا تكلَّم فيه بالظن على غير يقين علم فـ**"الهاء"** في قوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾ عائدة على ﴿الظَّنِّ﴾»[1].

يرى أبوحيان عود الضمير في قوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾ إلى عيسى عليه السلام لتناسق الضمائر بعد ذكر احتمالات عائد الضمير فقال رحمه الله: «الضمير في **قتلوه** عائد على الظن... فالمعنى: وما صح ظنهم عندهم وما تحققوه يقينا، ولا قطعوا الظن باليقين... والظاهر قول الجمهور: أن الضمير يعود على عيسى بجعل الضمائر كلها كشيء واحد، فلا تختلف. والمعنى صحيح بليغ»[2].

[1] -تفسير الطبري، ج377/9.

[2] -البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان، ج127/4، 128.

رجح السمين الحلبي[1] عود الضمير إلى عيسى عليه السلام أما ابن الجوزي ذكر ثلاثة أقوال في تحديد عائد الضمير ولم يرجح فقال رحمه الله: «قوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾ في «الهاء» ثلاثة أقوال: **أحدها**: أنها ترجع إلى الظن فيكون المعنى: وما قتلوا ظنّهم يقيناً، هذا قول ابن عباس. **والثاني**: أنها ترجع إلى العلم، أي: ما قتلوا العلم به يقيناً، تقول: قتلته يقيناً، وقتلته علماً للرأي والحديث، هذا قول الفراء، وابن قتيبة. قال ابن قتيبة: وأصل هذا: أن القتل للشيء يكون عن قهر واستعلاء وغلبة، يقول: فلم يكن علمهم بقتل المسيح علماً أحيط به، إنما كان ظناً. **والثالث**: أنها ترجع إلى عيسى، فيكون المعنى: وما قتلوا عيسى حقاً، هذا قول الحسن، وقال ابن الأنباري: اليقين مؤخر في المعنى، فالتقدير: وما قتلوه، بل رفعه الله إليه يقينا»[2].

يظهر لي والله أعلم أن ضمير **"الهاء"** في قوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يقينا﴾ تعود إلى عيسى عليه السلام لقاعدة عود الضمير إلى شيء واحد[إن كان الضمير يحتمله] أولى من إعادته إلى متعدد، وحتى لا تتنافر المعاني.

2/ قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء:159] .

موضع الشاهد: ﴿إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ﴾

ذكر الإمام الطبري قولين من أهل العلم في تحديد عائد الضمير ﴿بِهِ﴾ من قوله تعالى: ﴿إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ﴾ وضعف قول مَن قال إن ضمير **"الهاء"** تعود إلى محمد ﷺ، لأنه لم يجر ذكره في السياق، فرجح عود الضمير إلى عيسى عليه السلام لأنه هو المحدَّث عنه في السياق فقال رحمه الله: « فيجوز

[1] -الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، للسمين الحلبي، ج147/4.

[2] -زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي، ج495/1.

صرف **"الهاء"** التي في قوله: ﴿لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ﴾ إلى أنها من ذكره. وإنما قوله: ﴿لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ﴾ في سياق ذكر عيسى وأمّه واليهود. فغير جائز صرف الكلام عما هو في سياقه إلى غيره، إلا بحجَّة يجب التسليم لها من دلالة ظاهر التنزيل، أو خبر عن الرسول تقوم به حُجَّة، فأما الدَّعاوى فلا تتعذر على أحد... تأويل الآية إذْ كان الأمر على ما وصفنا : وما من أهل الكتاب إلا مَن ليؤمنن بعيسى، قبل موت عيسى، وحذف "مَن" بعد "إلا"، لدلالة الكلام عليه، فاستغنى بدلالته عن إظهاره، كسائر ما قد تقدم من أمثاله التي قد أتينا على البيان عنها»[1].

يقول ابن الجوزي رحمه الله: «وفي **"هاء"** ﴿بِهِ﴾ قولان: **أحدهما**: أنها راجعة إلى عيسى، قاله ابن عباس: والجمهور. **والثاني**: أنها راجعة إلى محمّد ﷺ، قاله عكرمة»[2].

فيكون المعنى من أعاد الضمير ﴿بِهِ﴾ إلى محمد ﷺ بأنه لا «يخرج يهودي ولا نصراني من الدّنيا حتى يؤمن بمحمد ﷺ، ولو غرق أو سقط عليه جدار فإنه يؤمن في ذلك الوقت»[3]. رجّح السمين الحلبي عود الضمير إلى عيسى عليه السلام فقال رحمه الله: «والضمير في ﴿بِهِ﴾ لعيسى، وقيل: لله تعالى، وقيل: لمحمد عليه السلام»[4].

بعد ذكر أقوال أهل العلم يظهر لي والله أعلم أن ضمير **"الهاء"** في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ﴾ تعود إلى عيسى عليه السلام، لأنه هو المحدَّث عنه في السياق، فلا ينبغي العدول عنه إلى غيره، قال محمد

[1]- تفسير الطبري، ج389/9.

[2]- زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي، ج496/1.

[3]- البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان، ج130/4.

[4]- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، للسمين الحلبي، ج150/4.

الأمين الشنقيطي: «ومما لا شك فيه أنّ ما لا يحتاج إلى تقدير أرجح و أولى مما يحتاج إلى تقديرٍ»[1].

3/ قال الله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة:45].

موضع الشاهد: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾

اختلف العلماء في عائد ضمير **"الهاء"** ﴿**له**﴾ في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾

رجح الإمام الطبري رحمه الله عود الضمير ﴿**له**﴾ إلى ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ﴾ وهو المجرُوح فإنه إذا تصدَّق بالقصاص كفَّر الله ذنبه فقال رحمه الله: «وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب، قولُ من قال: عني به: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ المجروحَ فلأن تكون **"الهاء"** في قوله: ﴿**له**﴾ عائدةً على ﴿مَنْ﴾، أولى من أن تكون مِنْ ذِكْر من لم يجر له ذكر إلا بالمعنى دون التصريح وأحرَى، إذ الصدقة هي المكفِّرة ذنبَ صاحبها دون المتصدَّق عليه في سائر الصدقات غير هذه، فالواجب أن يكون سبيلُ هذه سبيلَ غيرها من الصدَّقات»[2].

ذكر ابن الجوزي قولين من أهل العلم وهو احتمال عود الضمير إلى الجاني (الجارح، والقاتل)، أو المجني (المجروح) ولم يرجح فقال رحمه الله: « قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ﴾ يشير إلى القصاص، ﴿فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ في

[1] -أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، ج7/ 130، دار الفكر للطباعة والنشر و التوزيع، بيروت، لبنان، 1995م.

[2] - تفسير الطبري، ج369/10.

"هاء" ﴿**له**﴾ قولان: **أحدهما**: أنها إشارة إلى المجروح، فإذا تصدّق بالقصاص كفّر من ذنوبه، وهو قول ابن مسعود، وعبد الله بن عمرو بن العاص، والحسن، والشعبي. **والثاني**: إشارة إلى الجارح إذا عفا عنه المجروح، كفر عنه ما جنى، وهذا قول ابن عباس، ومجاهد، ومقاتل، وهو محمول على أن الجاني تاب من جنايته، لأنه إذا كان مُصرّاً فعقوبة الإصرار باقية»[1].

بمعنى أن الضمير ﴿**له**﴾ قد يعود إلى الجاني بحيث لم يتقدم ذكره ولكن يفهم من السياق لدلالة المعنى عليه «فذلك العفو والتصدق كفارة للجاني تسقط عنه ما لزمه من القصاص. وكما أن القصاص كفارة، كذلك العفو كفارة، وأجر العافي على الله تعالى»[2].

أما السمين الحلبي فرجَّح عود الضمير إلى المجروح فقال رحمه: « .... الظاهر أنه يعود على المتصدِّق والمرادُ به مَنْ يستحِقُّ القِصاصَ مِنْ مصابٍ أو وليّ، أي: فالتصدقُ كفارةٌ لذلك المتصدِّق بحقه»[3]، ويُدعَّم هذا القول بحديث عبادة بن الصامت قال: قَالَ رَسُولُ اللهِﷺ: «مَنْ صَدَّقَ مِنْ جَسَدِهِ بِشَيْءٍ كَفَّرَ اللهُ عَنْهُ بِقَدْرِ ذَلِكَ مِنْ ذُنُوبِهِ»[4]، وذهب إلى هذا القول العكبري[5].

يظهر لنا و الله أعلم أن ضمير **"هاء"** في ﴿**له**﴾ من قوله تعالى ﴿فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ تعود إلى المجروح والمجني عليه، بأن عفَى عن الجاني فلا يُطالب بشيئ من القصاص، لأنّ عود الضمير إلى أقرب مذكور أولى من إعادته إلى غيره.

---

[1]- زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي، ج1/553- 554.

[2]- لبحر المحيط في التفسير، لأبي حيان، ج4/276.

[3]- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، للسمين الحلبي، ج4/280.

[4]- سنن الكبرى للنسائي، ج10/83.

[5]- التبيان في إعراب القرآن، للعكبري، ج1/439.

4/ قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾[المائدة: 64].

موضع الشاهد: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾

اختلف العلماء في تعيين عود ضمير ﴿**بينهم**﴾ من قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ فمنهم من أعاد الضمير إلى اليهود والنصارى، ومنهم من أعاده إلى اليهود فقط دون غيرهم.

أما الإمام الطبري فقد رجّح عود ضمير ﴿**بينهم**﴾ إلى اليهود والنصارى معا، فيُلاحظ أن الإمام الطبري أعاد الضمير إلى الأبعد دون الأقرب لوجود قرينة السياق تدل على ذلك فقال رحمه الله: « فإن قال قائل: وكيف قيل: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾، جعلت **"الهاء والميم"** في قوله: ﴿**بينهم**﴾ كناية عن اليهود والنصارى، ولم يجر لليهود والنصارى ذكر؟ قيل: قد جرى لهم ذكر، وذلك قوله: ﴿لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾، [سورة المائدة: 51] ، جرى الخبر في بعض الآي عن الفريقين، وفي بعضٍ عن أحدهما، إلى أن انتهى إلى قوله: ﴿وألقينا بينهم العداوة والبغضاء﴾، ثم قصد بقوله: ﴿ألقينا بينهم﴾، الخبرَ عن الفريقين»[1].

قال ابن الجوزي رحمه الله: «قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنا بَيْنَهُمُ الْعَداوَةَ وَالْبَغْضاءَ﴾ فيمن عني بهذا قولان: **أحدهما**: اليهود والنصارى، قاله ابن

[1]- تفسير الطبري، ج458/10.

عباس: ومجاهد، ومقاتل. فإن قيل: فأين ذكر النصارى؟ فالجواب: أنه قد تقدم في قوله تعالى: ﴿لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصارى أَوْلِياءَ﴾. **والثاني**: أنهم اليهود، قاله قتادة»[1].

ذكر أبوحيان أن الضمير ﴿**بينهم**﴾ يحتمل عوده إلى اليهود والنصارى معا لأنهما سبق ذكرهما وكونهما يدخلان في عموم أهل الكتاب فيشمل الفريقين فقال رحمه الله: «﴿وَأَلْقَيْنا بَيْنَهُمُ الْعَداوَةَ وَالْبَغْضاءَ إلى يوم القيامة﴾ قيل: الضمير في ﴿**بينهم**﴾ عائد على اليهود والنصارى، لأنه جرى ذكرهم في قوله: ﴿لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصارى أَوْلِياءَ﴾ ولشمول قوله: ﴿يا أهل الكتاب﴾ للفريقين»[2].

يتبين لنا والله أعلم أن الضمير ﴿**بينهم**﴾ من قوله تعالى: «﴿وَأَلْقَيْنا بَيْنَهُمُ الْعَداوَةَ وَالْبَغْضاءَ إلى يوم القيامة﴾ يعود إلى اليهود والنصارى حتى و إن كان لم يجر للنصارى ذكر في السياق ولكن يحتمله المقام، فإذا أُطلق لفظ "أهل الكتاب" يراد به اليهود والنصارى.

5/ قال الله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة:89].

موضع الشاهد: ﴿فَكَفَّارَتُهُ﴾

[1]- زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي، ج566/1.

[2]- البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان، ج316/4- 317.

اختلف العلماء في تحديد عود الضمير **"الهاء"** من قوله تعالى: ﴿**فَكَفَّارَتُهُ**﴾ فمنهم من أعاده إلى **"الحنث"**[1] الذي يُفهم من السياق و إن كان لم يجر له ذكر، ومنهم من أعاده إلى **"العقد"**[2] لتقدم الفعل الدال عليه وهو **"بما عقدتم"**. يقول ابن عطية: «والضمير على الصناعة النحوية عائد على ﴿**ما**﴾، ويحتمل ﴿**ما**﴾ في هذا الموضع أن تكون بمعنى: **الذي**، وتحتمل أن تكون مصدرية وهو عائد مع المعنى الذي ذكرناه على إثم الحنث، ولم يجر له ذكر صحيح لكن المعنى يقتضيه»[3].

رجّح الإمام الطبري عود الضمير إلى ﴿**ما**﴾ التي في قوله: ﴿بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ فيكون المعنى: لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارة ما عقَّدتم الأَيمان، قال رحمه الله: «والذي هو أولى عندي بالصواب في ذلك، أن تكون **"الهاء"** في قوله: ﴿**فَكَفَّارَتُهُ**﴾ عائدة على ﴿**ما**﴾ التي في قوله: ﴿بما عقدتم الأيمان﴾، لما قدَّمنا فيما مضى قبل أنّ من لزمته في يمينه كفّارة وأُوخذ بها، غيرُ جائز أن يقال لمن قد أوخذ: ﴿لا يؤاخذه الله باللغو﴾، وفي قوله تعالى: ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم﴾، دليلٌ واضح أنه لا يكون مؤاخذًا بوجه من الوجوه، مَنْ أخبرنا تعالى ذكره أنه غيرُ مؤاخذه»[4].

رجَّح العكبري[5] عود ضمير **"الهاء"** في قوله تعالى ﴿فَكَفَّارَتُهُ﴾ إلى **"العَقْد"** الدَّال عليه الفعل ﴿عَقَّدْتُمُ﴾.

---

[1]- البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان، ج352/4.

[2]- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، للسمين الحلبي، ج405/4.

[3]- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، ج229/2.

[4]- تفسير الطبري، ج458/10.

[5]- التبيان في إعراب القرآن، للعكبري، ج458/1.

قال أبوحيان: «الضمير في ﴿**فَكَفَّارَتُهُ**﴾ عائد على ﴿**ما**﴾ إن كانت موصولة اسمية، وهو على حذف مضاف كما تقدم، وإن كانت مصدرية عاد الضمير على ما يُفهم مِن المعنى وهو إثم الحنث وإن لم يجر له ذكر صريح لكن يقتضيه المعنى»[1].

يظهر لنا والله أعلم أن ضمير **"الهاء"** من قوله تعالى: ﴿**فَكَفَّارَتُهُ**﴾ تعود إلى **"العقد"** لدلالة الفعل عليه من قوله تعالى: ﴿بما عَقَّدْتُمُ﴾، فيكون المعنى: فكفارة ما عقَّدتم الأَيمان ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ [المائدة:89].

الخاتمة:

من خلال ما سبق ذكره تظهر لنا بعض النتائج منها:

1-أهمية الاعتناء بعود الضمير في تحديد المعنى.

2-نجد أنّ الإمام الطبري يستعمل أحيانا مصطلح "الكناية" بدل مصطلح "الضمير" في تفسيره وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على أنه يجمع بين مصطلحات الكوفيين و البصريين معا.

3- إن للضمير "الهاء" الغائبة أثر في تحديد المعنى، وهذا له أثر في توجيه المعاني القرآنية عند المفسرين.

[1]- البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان، ج352/4.

4- إن اختلاف أهل اللغة في تحديد معاني الحروف، له أثر واضح عند المفسرين في تعيين عائد الضمير.

5- يمكن للضمير أن يعود إلى مقدَّرٍ محذوف إن كان السياق يقتضيه.

**<u>المصادر والمراجع:</u>

*القرآن الكريم، برواية حفص عن عاصم.

1. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، دار الفكر للطباعة والنشر و التوزيع، بيروت، لبنان، 1995م

2. البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، 1420هـ.

3. التبيان في إعراب القرآن، لأبي البقاء عبد الله العكبري، تحقيق: علي محمد البجاوي.

4. جامع البيان في تأويل القرآن، لأبي جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مكتبة ابن تيمية القاهرة، الطبعة الثانية.

5. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، لأبي العباس أحمد بن يوسف، المعروف بالسمين الحلبي، تحقيق: الدكتور أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق.

6. زاد المسير في علم التفسير، لأبي الفرج جمال الدين، المعروف بابن الجوزي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1422هـ.
7. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1422هـ.
8. مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، درا إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1420هـ.